شذرات من لغتنا الخالدة

أ0 د0 عبد الحسين الفتلي

رئيس قسم اللغة وعلوم القران

العرب أمة حكيمة وضعت للغتها قواعد دقيقة بعد جهود مضنية حفظت كل ما سطروه من عبقريات وابداع من شعر وكلام منثور ، وحكم بليغة ظلت باقية حتى يومنا هذا ، ناهيك عن كلام الله تعالى 0 وسنة نبيه العظيم ، وهذه الملاحظات تبدو لكل قارىء متمعن في لغته ، قد يعدها بعضهم خارجة عن قواعد اللغة ، ويعدها بعضهم الآخر شاذة لا يقاس عليها يجب اسقاطها من دائرة اللغة الواسعة ، وفريق ثالث يراها جزءا" من اللغة لا يمكن انكارها ، ربما وضعت من باب الترف العلمي ، لكن الذين وضعوا قواعد اللغة أرادوا أن يوضع ذلك ضمن اطار منسجم مع القواعد غير خارج عنها ، واذن فاللغة بحر في أحشائه الدر كامن لابدَّ ان نغوص فيه لاخراج مثل هذه الدرر التي تزين لغتنا الجميلة 0

1ـ أقسام المبتدأ ـ

قسم النحاة المبتدأ على قسمين : مبتدأ له خبر مثل : الله ربنُا ومبتدأ وصف مكتف بمرفوعه0 أي أنَ المرفوع يسد مسد الخبر مثل : أَقائمٌ أخاك ، وهذا غير مقبول من ناحية المعنى ، والقواعد الموضوعة ، اذن الجملة لابُدَّ أَن تشتمل على مسند اليه وعلى مسند ، كلامنا لفظ مفيدٌ كاستقم[1] 0

واذا كان الوصف مبتدأ 0 فهو مسند اليه ، والفاعل او نائب الفاعل اللذان يسدان مسد الخبر هما مسندا اليه ايضا" 0 فأين المسند في مثل: أقائم الزيدان ؟

واذا كان الكوفيون والاخفش لا يشترطون سبق هذا الوصف بنفي او استفهام نحو : فائز اولو الرشد[2] 0

فتبدو هنا مشكلة اخرى لا يجيزها النحاة انفسهم ، وهي الابتداء بالنكرة بغير مسوغ ، واذا تأملنا هذا التركيب ((قائم الزيدان)) وجدنا الامر غير ذلك ، فهذا الوصف اما اسم فاعل واما اسم مفعول او اسم تفضيل او صفة مشبهة 0 وقد قال عنها النحاة ((انها اوصاف جارية مجرى الافعال ، تتحمل ضميرا" اذا لم ترفع ظاهرا" [3]

فهذا الوصف كالفعل يتحمل ضميرا" ، ويرفـع فاعلا" ، فلماذا لا يعمل عمـــل الفعل ؟ فهو يأتي مفردا" كالفعل في مثل قولنا : مررت بالرجلين الجالس ابواهما ، والجالس آباؤهم، كما نقول : اللذين او الذين جلس أبواهما ، او اباؤهم 0 كل ما في الامر ان الفعل يتقيد بزمـــن ، وهذا الوصف يدل على زمن مستمر ، فهو فعل مستمر كما نقول : فعل ماض ، ومضـارع ، وامر 0

والنحاة يميلون أحيانا الى كون الوصف فعلا" لانهم يفضلون في قوله تعالى ((أراغـب انت عن الهتي يا ابراهيم)[4] ان يكون انت ((فاعلا" الى راغب)) ولا يكون مبتدأ مؤخـــرا" لان في هذا فصلا" بيـن العامل والمعمول بأجنبـــي ، لان انـــت على هذا التقدير فاعل ((لراغب)) فليس بأجنبي منه واما على جعل ((راغــبا")) خبرا" مقدما" ((فأنـت)) اجنبي من ((راغب)) لانه خبر ، والخبر لا يعمل في المبتدأ[5] 0

وذكروا ايضا وجوب الوصف الواقع مبتدأ ان يكون مكتفيا" بمرفوعه، فلا يجـــوز في مثل ((أقائم ابواه زيدٌ)) ان يعرب ((قائم)) مبتدأ، بل يعربونه خبرا" مقدما و ((ابــواه)) فاعلا لقائم وزيدا" مبتدأ مؤخرا" ، ((فقائم)) على هذا الشكل فعل لا لبس فيه 0

وقالوا كذلك : لا يجوز ان يكون ((أقائمان)) مبتدأ في مثل ((اقائمان الزيدان)) لان الالـف فاعل والزيدان فاعل فيجتمع فاعلان لفعل واحد، الا على لغة ((اكلوني البراغيث)) فأيـــن الفاعل الاول يا ترى في مثل هذا التركيب ؟

لا بد ان يكون الالف ـــ كما ذكرنا ـــ واذا كان كذلك فما الفرق بين ((قاما)) و قائمـــان)) فكلاهما فعل اذن 0

وهناك امر مهم وهو ان العرب تعطف الاسماء على مثلها والافعال على مثلها كذلك ولـكنهم يعطفون الوصف على الفعل او العكس ، وهذه اشارة الى ان الوصف الجاري مجرى الفـعل فعل ايضا" قال تعالى ((فالمغيرات صبحا" فأثرن به نقعا"))[6]

وقال تعالـــى ((ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا" حسنا"))[7] فعطف الفعل على الوصف الذي يشبهه 0

وقال الشاعر[8] :

بات يـغشيها بعضب باترٍ يـقصد في أسوقها وجائرِ

فعطف ((جـائر)) الذي هو وصف على ((يقصد)) فهل بعد هذا من دليل على ان الوصف الجاري مجرى الفعل هــو فعل لا يقع الا مسندا" في مثل : ((فائز اولو الرشد)) وما جاء

بعده فاعل ، مسند اليه ، وليس هناك مسند اليه في جملة وهي خالية من المسند ومن التشابه الكبير بين الفعل والوصف ، وكون الوصف فعلا" حقيقة ان الالف و اللام تدخل على الفعل وتكون بمعنى ((الذي)) كما هي في الوصف بمعنى ((الذي))، قال الفرزدق:

ما انت بالحكم التُرضى حكومته ولا الاصيل ولا ذي الرأي والجدل

قال ابن عقيل : وهذا عند البصريين مخصوص بالشعر وزعم المصنف في غير هذا الكتاب ـ يعني ابن مالك ـ بل يجوز في الاختيار[9] ، أي النثر 0

ومثل قول الفرزدق قول ذي الخرق الطهوي [10] :

يقول الخنا وابغض العجم ناطقا" الى ربه صوت الحمار اليجدُّعُ

فيستخرج اليربوع من نافقائه ومن جحره بالشيخة اليتقصّعُ

أي : الذي يجدّعُ ، والذي يتقصّعُ000

مسألة اخرى في هذا الشأن وهي الحال التي تسد مسد الخبر ولكنها لا تصلح ان تكون خبرا" مثل : ضربي العبد مُسيئا")) ((فمسيئا")) حال سدت مسد الخبر ، لان الخبر وصف للمبتدأ 0 و ((مسيئا")) هنا ليست وصفا" ((لضربي)) لان الضرب لا يوصف بالاساءة ، لذا يقدرون : اذا كان مسيئا" او اذ كان مسيئا" 0 و ((كان)) ها هنا تامة ، والحال تأتي من فاعلها ، ولا يخفي ما في هذه التقديرات من خروج على طبيعة اللغة والاسهل ان نقدر ((كان) ناقصة على حالها 0 وهي ومعمولاها في محل رفع خبر الى ((ضربي)) الذي هو مصدر صريح ويبقى سؤال عن الوصف المسبوق بنفي او استفهام ليس حرفا" ، بل مسبوق بفعل مثل ((ليس)) او اسم مثل : ((كيف وغير)) وليس لا تدخل الا على المبتدأ والخبر أي على جملة اسمية ، فكيف اذا كان الوصف فعلا" اذن ؟0

نقول : ان بعض النحاة يرى ان((ليس)) حرف وليست بفعل بمنزلة ((ما)) 00 او انها تدخل على الفعل ولا يكون لها عمل ، قال الشاعر[11] :

ليس ينفك ذا غنى" واعتزازٍ كُلّ ذي عفةٍ مقلٍّ قنوع

فإذا قلنا : ليس قائم الزيدان فـ ((ليس)) نافية فقط ولا عمل لها ، لانها داخلة على فعل مستمر مثلها 0

اما ((كيف)) فلا اشكال في استعمالها مع الافعال او الاسماء، نقول : كيف قائمٌ الزيدان ، وكيف قامَ الزيدان 0

تبقى ((غير)) مع الوصف لان فيها معنى النفي ، مثل : غير قائمٍ ((الزيدان))

وقول الشاعر[12] :

غيرُ لاهٍ عداك فاطّرح اللهـــ ـــو ولا تغترر بعارض سلـــمِ

وقول المتنبي :

ليس بالمنكر ان برزت قدما" غير مدفوعٍ عن السبق العرابُ

فعند النحاة ((عداك)) فاعل و ((غيرُ)) مبتدأ ، و((العرابُ)) نائب فاعل سد مسد الخبر 0 والمبتدأ ((غير)) 0 والقول في هذا ان ((غير لاهٍ)) و((غيـر)) مرفوعٍ تركيبان يدلان على الفعل الذي فيه معنى النفي مثلما دلت ((غير)) على معنى اخر فـــي الاستثناء نحو : جاء الناس غير واحدٍ ، بخلاف : جاء الناسُ الاّ واحدا" لان ((الاّ)) حرف ، و((غير)) اسم فـأصبـح لها فـــي الاستثناء معنى آخـــر يختلف عما كانت عليه في هذا الموضع ، أي تأخذ اعراب المستثنى ويصبح المستثنى بعد ذلك مجرورا" بالاضافة الى ((غير)) 0

فهذه وجهات نظر قابلة للمناقشة وليســت قواعد جديدة ، لان قواعد لغتنا لا يمكن ان تغير او تبدل، كل ما نستطيع عمله هو اقتراح طرق تسهل عملية التعليم تمشيا" مع تطور الزمن وكما يقول المحدثون ان اللغة كائن حي 0

ولهذا نحاول تقريب هذه القواعد مـــن اذهان المتعلمين وتحبيب هذه اللغة الى نفوسهم 0 لان ذلك يساعدهم على الاعتزاز بتراثهم وامتهم العربية التي هي جزء منهم 0

2ـــ الاشتقاق الاكبر ـــ

جعل فريق من العلماء ومنهم ابن جني الاشتقاق الاكبر في قبول الكلمة للتقلبات ، وافادتهـــا معاني شتى يجمع بينها غرض واحد ومعنى شامل تعقد عليه تلك التراكيب ، وان تباعد شـــئٌ من ذلك رُد بلطف التأويل اليه ، وجعلوا هذا يقع علـــى الكلمات المركبة مـــن ثلاثة احرف ، مثل : حمد ، وجبر، وكلم ، وقـال ، وعبر، وذلك لانـــه يمكـن جعل كـل واحد مـــن تـــلك الحروف الثلاثة ابتداء لتلك الكلمة ، وعلى كـــل مـــن التقديرات الثلاثة فانـــه يمكن وقـــوع الحرفين الباقيين على وجهين فنحصل من ذلك ستة اوجه ، فمثلا" ((قال)) تدل عندهم على الخفة والحركة ، مثـل : القول ، والقلو ، والوقل ، وولق ، ولوق ، ولقو ، وكـذلك ((عبر)) تدل علـــى الانتقال مثل ((عرب ، وعبر، وربع ، ورُعب ، وبعر ، وبرع)) 0

وكل الكلمات التي اختاروها لا تمثل اللغة ، انما هي مختارة بدقة وحذق لتنسجم مع ما ادعوه في هذا المضمار 0 ولقائل ان يقول ربما ضاعت معاني الالفاظ الثلاثية الاخرى ولـم تحتفظ بها معجمات اللغة ، فأصبحت مهملة ، وهـذا ما اشار اليـــه الخليل بـن احمد في كتابه العين عندمـــا ذكر المعاني المستعملـــة والمعاني المهملة للالفاظ 0 قـــال ((في باب الحاء والقاف والميم معهما)) له اربعة استعمالات[13] 0

1-ق ح م : قحم الرجل يقحم قحوما" في الشعر 0

2- ق م ح : القمح : الْبُر0

3- م ح ق : محقة الله فانمحق ، وامتحق ، أي ذهب خيره وبركته ونقص 0

4- ح م ق : استحمق الرجل ، فعل فعل الحمقى ، وحمق ، حماقة ، صار احمق 0

اما الاستعمالان الاخران عند ابن جني وجماعته فليس لهما وجود هـا هنـا 0 فليس هنـــاك ((م ق ح)) و ((ح ق م)) وقال في باب الحاء والدال والثاء معهما 0 ((ح د ث)) له استعمال واحد فقط 0

ــ حدث : يقـــال : صار فلان أُحدوثة 0 أي كثروا فيـــه الاحاديث ، وشاب حدث ، وشابة حدثة ، فتية في السن ، والحدث من احداث الدهر : شبه النازلة[14] 00

وفي باب الهاء والسين والميم معهما ــ ففيه ثلاثة استعمالات :

١ - هـ م س : الهمس : حسن الصوت في الفم مما لا اشراب له من صوت الصدر ، ولا جهارة في المنطق 0

٢ -س هـ م : اسهم الرجلان ، أي اقترعا 0 والسهم : النصيب 0

٣ -س م هـ : سمة البعير والفرس في شحطه يسمه سموها" فهو سامه 0لا يعرف الاعياء[15] 0

فالمسألة ليست مطردة ــ كما نرى ــ عند ابن جني واصحابه ، انما جاءوا ببضع كلمات لها هذه التقلبات التي ذكروها جمعها لطف التأويل في معنى واحد ، فهذا الاشتقاق الذي ذكره ابن جني لا تأثير له يذكر في اللغة التي فيها الاشتقاق الصغير والكبير والاكبر 0 فاللغة لها قياس كما يقول ابن فارس ، وان العرب تشتق بعض الكلام مـــن بعض ، واســـم الجن مشتق مـــن الاجتنان وان الجيم والنون تدلان ابدا" على الستر ، تقـول العرب للدرع جُنّة ، واجنّه الليل ، وهذا جنين ، أي هو في بطن أُمه ، وان الانس مـن الظهور ، يقولـــــون : آنست الشيء أي أبصرته وعلى هذا سائر كلام العرب علم ذلك من علم وجهله من جهل[16] 00

وابن جني نفسه لا يقطع بهذه القواعـد حيث يقول : ولنقدم امـــام القـــول على فرق بينهمـــا (اي بين الكلام والقول) طرفا" من ذكر احوال تصاريفهما واشتقاقهما مـــع تقلب حروفهما ، فان هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق ويعلوه الى مـــا فوقه ، وستراه فتجده طريفـا" غريبا" ومسلكا" من هذه اللغة الشريفة عجبا"[17] 00 فهو انما جاء بـــه على سبيل الطرافة والغرابة والاستئناس ، لكن العلماء من اهل اللغة فصلوا فيه تفصيلا" جعله من مسلّمات اللغة

3ـ افعال ملحقة بكان واخواتها ـ

اسماء موضوعات النحـــو كثيرة ومتعددة ، فهناك المرفوعات والمجرورات والمنصوبات 0 وهناك النواسخ التي منها الافعال الناقصة ومنـــــــــها الحروف المشبهة بالافعال ، والحقت الحروف الناسخة مـــرة بالافعال الناقصة مـــن حيث العمل 0 او الحقت بالحروف المشبهـــة بالفعل ، مثل ان وما ، ولا ولات المشبهات بـ ((ليس)) و ((لا)) الملحقة بأن واخواتها من ناحية العمل ايضا" ، وهناك افعال الرجاء ، والمقاربة، والشروع ، والافعال التـــــي تنصب مفعولين اصلهما مبتدأ وخبر ، وهكذا 0

والذي يعنينا هنا بعض الافعال التي جاءت عن العرب لها استعمال الافعال الناقصة لان فيها منصوبا" ومرفوعا" ، وكلها تأتي بمعنى ((صـــار)) ولـــو استعملت مثل هذه الافعال على معناها واعرب المنصوب بعدها حالا" لكـــان احسن وافضـــل ، ولتخلصنا مـــــــن التقديرات والتأويلات ، لكنّ النحاة يشترطون في الحال ان تكون مشتقة ، والغالب في منصـــــوبات هذه الافعـــال جامد ، لكن هـــذا يمكـــن ان يدخل ضمـــن اطـــار الاحوال الجامـــدة المؤولة مثل

((وينحتون من الجبال بيوتا"))[18] وارسلها العراك ، وجاء زيدٌ ركضا" 0

وهذه الافعال هي[19] :

1-آض : قال الشاعر :

وبالمحض حتى آض جعدا" عنطنطا اذا قام ساوى غارب الفحل غاربه

وقال الآخر:

ربيتـــــــــــه حتى اذا تمعددا وآض نهدا" كالحصان اجـــردا

2- رجع : جاء في الحديث ((لا ترجعوا بعدي كفارا"))

وقول الشاعر :

تعـدّ لكم جزر الجزور رماحنا ويرجعــن بالاكباد منكسرات

3-عاد : قال الشاعر :

فكان مضلّــي من هديت برشده فللـــه مغوٍ عـــاد بالرشد آمرا

٤ -قعد : قالوا :

قعد لا يسأل عن حاجةٍ الا قضاها 0

وقالوا : ارهف شفرته حتى قعدت كأنها حربةٌ0

وقال تعالى : ((لا تجعل مع الله الها اخر فتقعد مذموما" مخذولا"))[20]

٥ -استمال : اخـذ الدلـو عمـر فاستمالت غـربا"[21] ، قال ابن الاثير معناه ان عمر لما اخذ الدلو عظمت في يده ، لان الفتوح كان فـــي زمنـه اكـثـر منه فـــي زمن ابي بكر .

وقال الشاعر :

ان العداوة تستحيـــــل مـــودةً بتدارك الهفوات بالحسنـــــات

6 - حار : ومـا المرء الا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد اذ هــو ساطـع

7- ارتدَ : قال تعالى : ((القاه على وجهه فارتد بصيرا"))[22]

8- تحول : وبدلت فرحا" داميا" بعد صحةٍ فيا لك مــن نعمــى تحولن ابؤسا

9- راح وغدا : جاء في الحديث : ((لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا" ، وتروح بطانا))

10- آل : قال الشاعر : ثم آلت لا تكلمنا كــل حــيٍّ معقــب عقــبا

11- جاء : قال سيبويه : ومثل قولهم : ما جاءت حاجتك 0 كأنه قال : ما صارت حاجتك 00[1]

وقالوا : جاء الْبُر قفيزين وصاعين[23]

فكل ما ذكر يعتمد المعنى ويتناسى طبيعة اللغة ، فلمـــاذا لا يعرب ((مذموما" وبصيرا")) في الايتين حالين لانهما مشتقان ولماذا لا تعرب جملة ((كأنها حربةٌ)) في محل نصب حال أيضا" ، امّا المنصوبات الاخرى فتعرب احوالا" جامدة مؤولة بالمشتقات 0

لكن النحاة ربما احسوا بقوة الفعل ((صــار)) في التحـول والصيرورة فحملـــوا عليه بعض الافعال الناقصة مثل : كان ، واضحى ، وبات ، وظل[24] ، وحملوا على ذلك قوله

تعالـــــــى: ((كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس))[25] وقوله تعالى ((كيف نكلم مـن كان فـــي المهـــــد صبيا")) [26]

وقوله تعالى ((وفتحت السماء فكانت ابوابا، وسيرت الجبال فكانت سرابا))[27] 0

وقال الشاعر[28] :

بتيهاء قفر والمطي كأنهـــــا قطا الحزن قد كانت فراخا" بيوضها

اما ((ظل)) بمعنى ((صار)) فقوله تعالـى ((واذا بشر احدهم بالانثى ظلَ وجهه مسودا" وهو كظيم))[29]

وكذلك ((اضحى)) كقول الشاعر[30] :

ثُمَّ اضحوا كأنهم ورق جفـــــ ف فألوت بـــه الصَبّا والدّبـــــور

وجاءت((امس)) بهذا المعنى مثل قول الشاعر :

امست خلاء وامسى اهلها احتملوا اخنى عليها الذي اخنى على لُبدِ

اما ((اصبح)) فقول الشاعر الفرزدق[31] :

فأصبحوا قـــد أعاد اللـــه نعمتهم اذ هم قريش واذ ما مثلهم بشـرُ

واخر هذه الافعال ((بان)) قال الشاعر :

احـــــــن كلما ذكـــرت كُليبٌ أبيت كأنني أطـــوى بجمـــر

لكن هذه الافعال لا مشكلة فيها ، فقد نحملها علـى معانيها دون تأويل او نؤولها كما يقولون ، لان العمل واحد وكلها من نوع واحد 0 أفعال نـــاقصة تدخل على الجمل الاسمية وتعمل في المبتدأ والخبر معا" على رأي البصريين 0

- الحمل-

تحمـل العرب الشبيه على شبيهه ، والنظير علـى نظيره ، والفرع على الاصول وما النافية على ((ليس)) في العمل وما اشبه ذلك ، وقد توسعوا في هذا الباب ، وخرجوا أحيانا" على القواعد التي وضعوها وأصبحت ثابتة لا يخرجون عليها الا في النادر 0 فاذا تأملت هذا الباب وجدت الكثير الخارج عن قواعد اللغة ولا سيما في باب الحمل 0

قال ابن هشام : اعطاءَنْ ((ان)) المصدرية حكم ((ما)) المصدرية في الاهمال كقوله :

أن تقرآن على أسماء ويحكما مني السلام وان لا تشعرا احدا

الشاهـــــد في ((ان)) الاولى ، وليست مخففة من الثقيلة بدليل ((ان)) المعطوفة عليها ، واعمـــــال ((ما)) حملا" على ((ان)) كما روي من قوله عليـــــــه الصلاة والسلام ((كما تكونوا يولّى عليكم))[32] ومثل هذا كثير في الشعر ،قال الشاعر :

ابى الناس ويح الناس ان يشترونها ومن يشتري ذا علةٍ بصحيح

وقال الاخر :

اذا كان امر الناس عند كبيرهم فلابد ان يلقون كـــل تباب

وقال ابن النحاس : وقد يرفع الفعل بعد ((ان)) كقراءة ابن محيـــــصن ((لمن اراد ان يتّمُ الرضاعة))[33] 0 وزعم الكوفيون أنَّ ((أن)) هي المخففة مـــن الثقيلة شذ اتصالها بالفعل ، والصـــــواب قـــول البصريين أنها ((أنْ)) الناصبة أهملت حملا" على ((ما)) أختها المصدريـــة[34] 00 ويبـــــــدو هنا أنّ إهمال ((أنْ)) مقيس وليس نادرا" او شاذا" ، وليس ضرورة شعرية كما يقولون 0

ومن هذا الباب حملهم ((ان)) الشرطية على ((لو)) في الاهمال كما روي فـــــي الحديث ((فأن لا تراه فانه يراك)) وإعطاء ((لو)) حكم ((إنْ)) في الجزم 0

قال الشاعر[35] :

لو يشأ طار بها ذو ميعـــــةٍ لاحـــق الآصال نهدٌ ذو خصـــل

وقد حملوا الاسم المنقوص في حالة النصب على حالتي الرفع والجر بحذف يائه كقول الشاعر[36] :

ولـــو أنَّ واشٍ باليمامة داره وداري بأعلى حضرموت اهتدي لها

وقوله[37] :

فألفيته يوما" يبير عـــدوه ومجـــرٍ عطاءً يستحق المعابرا

او اثبات الياء في حالتي الرفع والجر حملا" على حالة النصب، وقال الشاعر :

لعمرك ما تدري متى انت جائيٌ ولكنَّ اقصى مـــــدة الدهر عاجـــل

وقول الاخر[38] :

فيوما" يوافين الهوى غير ماضيٍ ويوما" ترى منهن غولا" تغولُ

وقال جرير :

وعرق الفرزدق شرّ العروق خبيثٌ الثرى كابي الازندُ

واكثر علماء النحو يحملون مثل هـــذا على الضرورة 0 ولا يجوز في حالة السعة 0 فحمل النصب على حالتي الرفع الجر من اعطاء الاقل حكم الاكثر ، ولهذا جوزه بعض العلماء في سعة الكلام 0 وقالوا في هذا من اجراء المعتل مجرى الصحيح ، كما في قول الشاعر :

أبيتُ على معاري فاخـــراتٍ بهـــنَّ قلوبٌ كدم العبـــاط

كان الوجه ان يقول ((معارٍ)) [39] وهناك الحمل المقلوب ، فقد حملوا اعراب جمـــع المؤنث السالم على اعراب جمع المذكر السالم ، فجعلوه منصوبا" ومجرورا" بالكسرة لان المذكر السالم منصوب ومجرور بالياء ، وحركات الاعراب كما نعرف اصلية وفرعية ، فالاصلية هـــي الكسرة والفرعية هي الياء ، فأعطى الفرع الاصل ، واعطي الاصل الفرع لان المؤنث محمول على المذكر فقيل : كلمتُ المسلمات ومررتُ بالمسلمات ، وكلمت المسلمين ، ومـــررت بالمسلمين ولا نعرف الحكمة هنا ، فالعرب اعلم بلغتها وادرى من غيرها بقواعدها 0

ومن حمل الاصل على الفرع او العكس تأنيث المذكر ، وتذكير المؤنث في بعض المواضـع ، فقد جاء عن العرب افعال مسندة للمذكر وهـــي مؤنثة ، وافعال مسندة للمؤنث وهي مذكرة ، والسر عندهم في هذا ان كلّ واحد من الاشياء التي ذكروها يجوز ان يؤول بالجمع فيكـون مذكر المعنى ، فيؤتي بفعله خاليا" مـــن علامة التأنيث ، وان يؤول بالجماعة فيكون مؤنث المعنى فيؤتى بفعله مقترنا" بعلامة التأنيث ، والاسماء التي اجازوا فيها الوجهين هي :

١ -اسم الجمع ، نحو : قدم ، ورهط ، ونسوة 00

٢ -اسم الجنس الجمعي ، نحو : روم ، وزنج ، وكلم ، وشجر 00

٣ -جمع التكسير لمذكر نحو : رجال ، وزيود ، وطلاب 00

٤ -جمع التكسير لمؤنث نحو : هنود ، خوالد ، وضوارب 0

٥ -جمع المذكر السالم نحو : الزيدون ، والمؤمنون ، والبنون 0

٦ -جمع المؤنث السالم نحو : الهندات ، والمؤمنات ، والبنات 0

فيقال على هذا : جاء القوم ، وجاءت القـــوم 0 قال تعالـــى ((وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه))[40] ويقال : زحف الروم ، وزحفت الروم 0 قال تعالى ((ألم

غُلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون)) [41] وقالوا : جـــاء الرجال ، وجـاءت الرجال ، وجـــاء الهنود ، وجاءت الهنود 0

قال الشاعر[42] :

أخالد قــد هويتك بعد هنــدٍ فشيبني الخوالــد والهـنـودُ

ونقول : جاء الزينباتُ ، وجاءت الزينبات ، قال اللـــــه تعالـــى : ((يايها النبيُ اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركنَ بالله شيئا"))[43]

وقال الشاعر[44] :

فبكى بناتي شجوهنَ وزوجتي والظاعنـــون اليَ ثم تصدعوا

ونقول جاء الزيدون ، وجاءت الزيدون ، قال تعالى ((آمنت انه لا اله الا الذي آمنت بــه بنو اسرائيل))[45]

قال الشيخ خالد الازهري ان البنين في قوله : بنو اسرائيل و ((البنات)) في قوله : بناتي لم يسلم فيهما لفظ الواحــد 0 اذ الاصل بنو ، فحذفت لامه وزيد عليه واو ونون فــي التذكير 0 والف وتاء في التأنيث 0 فلما لم يسلم فيه بناء الواحد عومل معاملة جمع التكسير[46] ،وقال الشاعر[47] :

لو كنت من مازنٍ لم تستبح ابلي بنو اللقيطة من ذُهلِ ابن شيبانا

وتوسع العرب في هذا الباب فأنثوا المذكر0 لان المضاف اليه مؤنث مثل :

قول الشاعر[48]:

وتشرق بالقول الذي قد اذعته كما شرقت صدر القناة من الدّم

وقولــه تعالـــى ((تلتقطه بعض السيارة))[49] قال سيبويه : وربما في بعض الكلام : ذهب بعض أصابعه وانما انث ((بعضا")) ، لانـــــه اضافه الى مؤنث هو منه ، ولو لم يكن منه لم يؤنثه ، لانـــه لو قال : ذهبت عبد امــك 0 لم يحسن[50] 00 0

وقد يكون المذكر مضافا" الــى مؤنث ليس منــه ولا هو في المعنى مؤنث ، الا انه يجوز ان تلفظ بالثاني وانت تريد الاول نحو قولهم: اجتمعت اهـــل اليمامة "[51] مضاف الى مؤنث ليس منه ، ولا هو فــي المعنى مؤنث ، الا انه يجوز ان تلفظ بالثانـــي وانت تريد الاول 0 ويحذفون التاء من الفعل اذا كان فاعل الفعل مضمرا" ، كقول الشاعر :

فلا مزنةٌ ودقت ودقـــــها ولا ارض ابقـــل ابقالـــها

يريد : ولا ارض ابقلت ابقالها [52] 00

ومثل هذا قول الشاعر [53]:

وامـــــا تـــرى لّمتي بدلت فـــــان الحوادث اودى بهـــا

وكل ما ذكرناه له وجه من التأويل وهو جزء من اللغة لا يمكن انكاره ولا يضر بقواعد العربية الخالدة 0

5ـــ ما شذّ عن قواعد الصرف ـــ

وضع العلماء للصرف من القواعد مـــا تفخر به اللغة العربية حتى يومنا هذا ، فللموضوع الواحد له طرقٌ مختلفة يمكن ان تستعمل دون الخروج على تلك القـــواعد المذكورة فـــــي مصنفاتهم لكننا نجد في ثنايا بعض الموضوعات استعمالات خارجة عـــن تلك التي جعلوها مقيسة ، فمثل هـــذه التراكيب لا يمكـــــن رفعها ،لان العرب استعملتها وهي اعرف بلغتها وادرى بمواطن استعمالها 0 أما المتشددون من اهل اللغة فيسمون هذا شاذا" او خارجا" عن القياس0 فاسم التفضيل يصاغ مـــن الفعل الثلاثي على وزن ((افعل)) للدلالة علـــــى ان شيئين اشتركا في صفةٍ وزاد احدهما علـــى الاخر في تلك الصفة ، فلما جاءت الكلمات : خير ، وشر ، وحب ((بغير همزة ، قالوا حـــذفت الهمزة هنا لكثرة الاستعمال ، والاصل اخيـــر ، واشـــر واحب ،كما في قول الشاعر :

بلال خير الناس وابن الاخير

وقال تعالى ((سيعلمون غدا" من الكذاب الاشَرّ)) بفتح الهمزة والشين ، وتشديـــد الراء 0 وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ((احب الاعمال الى الله ادومها وان قلَّ))

وقول الشاعر [54]:

واحب شيء الى الانسان ما مُنعا 0

واشترطوا ان يكون لاسم التفضيل فعل مثل : زيدٌ اكرم من عمروٍ ،ومع ذلك جاء صوغه مما لا فعل له فصاغوه من اسم عين كما ذكر سيبويه : احنكُ الشاتين ، واحنكُ البعيرين ، كما قالوا : آكل الشاتين 0 كأنهم قالوا : حنك ونحو ذلك 00 فانـــما جاءوا ((بأفعل)) على نحو هذا وان لم يتكلموا به[55] 00

وكذلك شذ صوغه من وصف لا فعل له مثل : اقمن به ، أي أحق[56]00

وذكرنا انه لا يصاغ الا مــن الفعل الثلاثي المبني للمعلوم المتصرف الذي لا يكون الوصف منه على افعل فعلاء ، وممــا يتفاوت فيه الفعل ، لكنــه جــاء عن العرب " ((هذا الكلام اخصر من غيره)) اخذ مـن ((اختصر)) الربــاعي المبني للمجهـول وقالوا : هـو اعنى بحاجتك ، وهو ازهى من ديكٍ ، اخذ من الثلاثي عُني و زُهي المبنيين للمجهول 0

لكن سيبويه لا يلتزم بهــذا احيانا" فهو يقول : فانما جاءوا ((بأفعل)) على نحو هذا وان لم يتكلموا به ـ مشيرا" الى استعمال اسم التفضيل مــن اسم العين والوصف اللذين لا فعل لهما ـ كما رأينا ـ فلو كان مثل هذا الاستعمال غير سائغ عند العرب لما ذكره في كتابه 0 واشار سيبويه ايضا" الى عدم اعلال صيغة التفضيل من الفعل الاجوف المعتل الوسط ، فان حرف العلة فيه يبقى على حاله سواء كان واوا" ام ياءً ، قــال : ويتم أفعل اسما" وذلك قولك : هذا اقول الناس 0 وابيع الناس ، واقول منك ، وابيع منـك ، وانما اتموا ليفصلــوا بينه وبين الفعل المتصرف ، نحو : أقال واقام ، ويتم في قولك : ما اقوله ، وابيعه ، لان معنــاه معنى افعــل منك ، وافضل الناس[57] ..

وكلنا يعرف ان وزن اسم الفاعل من الثلاثي على ((مفعول)) ومن غير الثلاثي علــى وزن مضارعه بابدال حرف المضارعة ميما" مضمومة وكسر ما قبل الاخر ، ثم جــاءت الفاظ على غير هذا القياس ، قالوا : أسهب فهو مسهب ، واحصن فهــو محصن والفج فهو ملفج ، بفتح ما قبل الاخر ، وجاء من الرباعي علــى وزن ((فاعل)) نحو : أعشب المكان فــهو عاشب ، واورس فهو وارس ، وايفع الغلام فهو يافع[58] 000

ولا يمكن اغفال ظاهرة المعنى في اللغة فقد جاء((فاعل)) مرادا" به اسم المفعول نحو : هو في عيشةٍ راضيةٍ ، أي مرضية 0

وقال الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها فاقعد فانك انت الطاعم الكاسي

أي المطعوم والمكسي[59] 000

وقد يأتي ((فعيل)) مرادا" به الفاعل ، مثل : قدير بمعنى قادر ، وفعول بمعنى فاعل ايضا" مثل : غفور بمعنى غافر 0 وقد ينوب عن صيغة مفعول وزن فعيل مثل : قتيل بمعنى مقتول وجريح بمعنى مجروح ، وكحيل بمعنى مــكحول ، وهذه الصفات لا تدخــل عليها تــاء التأنيث لانها يتساوى فيها المذكر والمؤنث 0 بخلاف جميل وعظيم ، فيقال : جميلة وعظيمة

للمؤنث وقد ينوب ((فعيل)) عـــن ((مفعل)) نحـــــــو : أعقدت العسل فهو عقيد ، واعلّه المرض فهو عليل ، أي مُعلّ ومعقد 0

واكثر مـــن هـذا مجيء ((مفعول)) مرادا" به المصدر مثل : ليس لفلان معقول ، وما عنده معلوم ، أي عقلٌ وعلمٌ 00[60] ومثـل هـذا كثير في اللغـة موجود بين ثنايا كتب العربية ، ولا أدعي انني أتيت بجديد لكني فتشت كثيرا" بين السطور حتى جمعت هذه المعلومات المتناثرة هنا وهناك في مكان واحد يسهل الرجوع اليها لمن اراد ذلك والله من وراء القصد0

الحواشي

١ - شرح ابن عقيل 13/1.

٢ - نفسه 188/1.

٣ - نفسه 206/1.

٤ - مريم 46.

٥ - شرح ابن عقيل 198/1.

٦ - الذاريات 3، و انظر معاني القران 211/1، و شرح الجمل للزجّاجي 249/1.

٧ - الحديد 17.

٨ - ظ: شرح الجمل للزجّاجي 249/1 و معاني القران 211/1.

٩ - شرح ابن عقيل 158/1.

١٠ الانصاف 151/1-152.

١١ المغني 213/1.

١٢ حاشية الصبّان 227/1.

١٣ العين 54/3-56.

١٤ نفسه 177/3.

١٥ نفسه همس

١٦ مقاييس اللغة 87/1.

١٧ الخصائص 5/1.

١٨ الاعراف 74.

١٩ حاشية الصبّان 229/1 و الهمع 112/1.

٢٠ الاسراء 23.

٢١ اللسان 134/2.

٢٢ يوسف 96.

٢٣ الكتاب 24/1.

٢٤ الهمع 230/1.

٢٥ ال عمران 110.

٢٦ مريم 29.

٢٧ النبأ 19.

٢٨ حاشية الصبّان 230/1.

٢٩ النحل 58.

٣٠ حاشية الصبّان 230/1.

٣١ الكتاب 28/1.

٣٢ المغني 30/1 و 697/2.

٣٣ البقرة 233.

٣٤ اعراب القران 233/1 و المغني 287/2.

٣٥ المغني 629/2.

٣٦ شرح ابن عقيل 82/1.

٣٧ شرح الجمل للزجّاجي 249/2.

٣٨ الكتاب 459/1 و المقتضب 44/1.

٣٩ الكتاب 58/2 و الخصائص 334/1.

٤٠ يوسف 30.

٤١ الروم 3.

٤٢ الكتاب 98/2.

٤٣ الفتح 10.

٤٤ شرح التصريح 280/1.

٤٥ يونس 90.

٤٦ التصريح على التوضيح 280/1.

٤٧ المغني 21/1.

٤٨ الكتاب 25/1 و المقتضب 197/4.

٤٩ يوسف 10.

٥٠ الكتاب 25/1.

٥١ نفسه 26/1.

٥٢ الكتاب 239/1 و معاني القران 127/1.

٥٣ نفسه 239/1 و معاني القران 128/1 و الاصول 349/2.

٥٤ شذا العرف 78.

٥٥ الكتاب 43/1.

٥٦ نفسه 100/4.

٥٧ نفسه 25/4.

٥٨ شذا العرف 74.

٥٩ نفسه 75.

٦٠ نفسه 75.